المقتطف

الجزء الثاني من السنة التاسعة عشرة

١ فبراير (شباط) سنة ١٨٩٥ . الموافق ٦ شعبان سنة ١٣١٢

القيصر اسكندر الثالث

ذكرنا في الجزء الاخير من المقتطف اسماء كثيرين من المشاهير الذين توفوا مدة احتجابه ووعدنا ان نأتي على ترجمات بعضهم تباعاً . ولقد يعجب القارئ من رجوعنا الى ترجمة القيصر اسكندر الثالث بعد كل ما نشرناهُ عنهُ في المقتطف لكنَّ خزائن الانشاء لا تفرغ وصاحب الترجمة من كبار الملوك الذين لهم المقام الاسنى في تاريخ القرن التاسع عشر ولذلك بحثنا في ما كتبهُ عنهُ كبار المحققين من الاوربيين واقتطفنا منهُ فصلاً يجدفيهِ القارئُ كثيراً مما لم يطَّلع عليهِ قبلاً ثم شفعناهُ بخلاصة ما نشرناهُ في المقتطف تتميماً للفائدة

منذ ثلاثين عاماً نشر غراب البين جناحيهِ في بلاد الروس ناعياً وليَّ عهدها الامير نقولا ابن القيصر اسكندر الثاني فان اخاهُ الامير اسكندر صاحب الترجمة الذي صار قيصراً بعد ابيهِ باسم اسكندر الثالث ضربهُ على غير عمد وهما يتمرَّنان على الفراسة ضربةً قضت بمرضهِ ووفاتهِ . وكان الامير نقولا من اجمل ابناء الملوك خَلقاً واكملهم خُلقاً عُقدت قلوب الروس على حبهِ واطمأنَّت نفوسهم الى ما يُرجَى منهُ من النفع لبلادهِ . وكان قد خطب الاميرة دغمار ابنة ملك الدنمرك فلما بلغها انهُ مريض اسرعت اليهِ وجعلت تمرِّضهُ كاحدى الممرِّضات . وقبل ان توفَّاهُ الله ببضع ساعات التفت الى اخيهِ وقال لهُ "لقد تركتُ لك يا اسكندر عرش السلطنة الروسية بما يحفُّهُ من المجد والمشاق واودُّ ان اضيف اليهِ شيئاً اثمن منهُ يعينك على حمل اعبائهِ" . قال ذلك ووضع يد خطيبتهِ في يد اخيهِ وقال لهُ "ان وصيَّتي الاخيرة لك أنْ تقترن بها" ثم التفتَ اليها وقال "وانتِ ايتها العزيزة يتمُّ لكِ ما كنتِ تتمنينهُ فتصيرين امبراطورة على بلاد الروس"

وكانت الاميرة دغمار تحبُّ خطيبها حبًّا صادقًا فغاصت في بحار الحزن شهورًا كثيرة وثقُل عليها ان تقترن بغيرهِ . ثم رأت ان لا بدَّ لها من ان تعمل بوصيتهِ فاقترنت باخيهِ بعد وفاتهِ بسنة ونصف فوجدتْ منهُ شهمًا نبيلاً انساها الحزن وفراق الاهل فوق ما وجدتهُ في بلادهِ من الجاه الواسع والمجد الاثيل

وقد ولد القيصر اسكندر الثالث بمدينة بطرسبرج في العاشر من شهر مارس (اذار) سنة ١٨٤٥ ولم يعتنَ بتعليمهِ الاعتناء الواجب إمَّا لانهُ لم يكن وليَّ العهد او لسبب آخر غير معلوم فلم يتعلَّم اللغات الاجنبيَّة ولا العلوم والفنون بل ربّي تربية حربيَّة ليكون قائدًا في الجرس الملكي . فلمَّا توفي اخوهُ وليُّ العهد كما تقدَّم وافضت ولاية العهد اليهِ رأى نفسهُ في مقام حرج لقلة معارفهِ فشرع في طلب العلوم واللغات فحصَّل منها جانبًا كبيرًا ولا سيما من علم الادارة وسياسة الممالك

وفي الثالث عشر من مارس (اذار) سنة ١٨٨١ فُجعت بلاد الروس بوفاة ابيهِ القيصر اسكندر الثاني اثر مكيدة النيهلست كما هو مشهور فأُلقيت اليهِ مقاليد المملكة مع ما فيها من المشاكل والعراقيل وفي النيهلست من الجرأة والاعتداء على الملوك . اما الاسباب الَّتي حملت النيهلست على الايقاع بالقيصر اسكندر الثاني مع انهُ حرَّر ثلاثة وعشرين مليونًا من فلاحي الروس من رق العبوديَّة والاحوالُ الَّتي كانت البلاد فيها حين ارتقاء ابنهِ اسكندر الثالث الى عرش الامبراطوريَّة الروسيَّة فقد بُسطت في رسالة مسهبة نُشرت في المقطم الصادر في ١٤ نوفمبر الماضي ومما جاء فيها ما يأتي

"وكأن نداء الحريَّة الذي نادى بهِ رجال الثورة الفرنسويَّة سُمع صداهُ في روسيا فظنَّ الناس ان الدنيا قد اشرفت على الكمال وانهُ قد حان الوقت الذي يصبح فيهِ بنو آدم شرعًا سواء وتزال الحواجز الحصينة الَّتي كانت تحول بين الطبقات منهم ولا يبقى للبغضاء اثرٌ بينهم . وفات حزب الاصلاح الذي قام في روسيا ان الطفرة محالٌ في هذا الكون وان للايام نظامًا لا تُخطاهُ ومدًى لا تتجاوزهُ فارادوا ان يقلبوا وجه الارض دفعةً واحدة وان يعدلوا عن الجادَّة الَّتي سلكتها روسيا من احقاب طويلة — وقد هداها اليها طول التجربة وكمال الاختبار وكانت كفيلةً بتقدُّم الاهلين ونجاحهم — الى طريق لم يألفوها وخطةٍ لم يعرفوها . ولا يخفى ان الحريَّة اذا جاءت دفعة واحدة وكان الناس لم يتعوَّدوها ولا زاضوا انفسهم عليها ادَّت بهم الى الكسل وافضى الكسل بعد ذلك الى الاسراف وهذا كان شأن البلاد الروسيَّة لما أُطلق الفلاحون من ربقة استعبادهم.

وفي ذلك الوقت وُضع نظام التعليم الجديد وفُتحت ابواب المدارس لاناس لم يطرقوها قبلاً . فكانت عقبى ذلك خروج جماعات من الفتيان والفتيات ممن اصابوا ذروًا من العلم وطرفاً من التهذيب . فهؤلاء طلبوا الخطط العلميَّة في بلادهم فعزَّت عليهم لكثرة عددهم وارادوا ان يعودوا الى ما كان عليهِ آباؤهم من الكدح والسعي في فسيح الفضاء فعجزوا عن ذلك ايضاً لضعف قواهم البدنيَّة وارتقاء مجموعهم العصبي تبعاً لناموس النشوء والنموّ

"وقد كان القيصر اسكندر الثاني مبعث تلك النشأة الجديدة في مبدإ الامر ثم شاركهُ في ذلك ولداهُ الغرندوق نقولا ولي العهد والغرندوق ولدمير . اما ولدهُ الثاني الغرندوق اسكندر فلبث صامتاً لا يبدي حراكاً حتى كان ابوهُ يغضب في اكثر الاوقات لما يراهُ من قعودهِ عن طلب الاصلاح وعدم ميلهِ الى معاونتهِ على تحقيق تلك الاماني الوطنيَّة خلافاً لاخويهِ . ودامت الحال كذلك والاصلاح جارٍ مجراهُ ولكن لم يطُل العهد حتى اخذت تلك الغيوم تنقشع شيئاً فشيئاً فبدا من خلالها جماعة الاشراف الذين ارادوا ان يأخذوا بطريقة اهل البلدان الغربيَّة من اوربا فالتقطوا مع ما التقطوهُ من الحريَّة ضروب الترف والانغماس في الملاذ فساءت حالهم وفسدت آدابهم بمقدار ترفهم ونعمتهم

"وفيما كانت روسيا على هذه الحال من الاشتغال بالاصلاح والانصراف الى الرخاء والنعيم اخترمت المنيَّة الغرندوق نقولا (كما تقدم) وافضت ولاية العهد الى اخيهِ الغرندوق اسكندر ولم يكن كبقيَّة رجال البلاط في ابتغاء الاصلاح والسعي اليهِ كما سبق القول الاَّ انهُ لم يكن ايضاً منهمكاً في اللهو والترف فاخذ يهيئُ نفسهُ للقبض على زمام السلطة بعد وفاة اخيهِ فعكف على طلب العلم وتحصيل اللغات فحذق من اللغات الغربيَّة الانكليزيَّة والفرنسويَّة ومن اللغات الشرقيَّة العربيَّة والفارسيَّة ثم اقبل على تعلُّم الفنون فاتقن فن الهندسة واحرز شهادة المهندسين وتثقَّف ايضاً الفنون الحربيَّة بفروعها وكان من النابغين فيها

"ولم يزل على شأنهِ من السكون والدعة الى ان ارتقى عرش الامبراطوريَّة فاذا البلاد كالمريض الذي أبلَّ من مرضهِ ولكن لم يزل فيهِ بقيَّة ضعفٍ يشكو منهُ فالجيش على غير نظام والاسطول في عوز الى الزيادة والاصلاح والفلاحون في حالٍ ليس بعدها من الحرَض والفساد وهي عاقبة الحريَّة الَّتي اصابوها بغتةً على غير استعداد فيهم لقبولها . اما عامة الاشراف فكانت الحريَّة الَّتي نالوها مدعاة الى خرابهم وتضعضع حالهم

"تلك كانت حالة البلاد الروسيَّة لما دالت الدولة للمرحوم القيصر اسكندر الثالث فشرع من فورهِ في اصلاح المختل ومداواة المعتلّ وصرف همهُ الى جماعة الاشراف

فنبههم الى الواجب عليهم وبيّن لهم انهم هم المسؤولون عما يفعلون واوصى وزراءهُ بمسالمة جميع الدول فرارًا من الاحن والخصومات السياسيَّة قائلاً لهم انني لا اطمع في ارض جديدة لان ابي قد ترك لي ما يكفيني منها ولكن جلّ ما ابتغيهِ انما هو الاحتفاظ بما عندي واكثار مواردهِ . وكان من اول ما فعلهُ انقاص نفقات البلاط السنويَّة نحو مليون من الجنيهات ثم انهُ كبح جماح الاشراف وعلّمهم الاقتصاد في معيشتهم اذ جعل نفسهُ مثالاً لهم في ذلك ووطّد ركن الامن والراحة في البلاد بما اظهرهُ من شدَّة البأس وثبات الجنان واكبَّ على العمل وهو على شأنهِ من السكون والوقار "

واقام السنة الاولى من ملكهِ في قصر كتشينا خارج بطرسبرج حتى قيل انهُ يخشى الخروج منهُ وانهُ اذا خرج لبس درعًا من الفولاذ تحت ثيابهِ . وشاع حينئذٍ ان النيهلست عازمون على نسف هذا القصر بمن فيهِ ولكن لم تمضِ مدة طويلة حتى جعل يقيم في قصر الشتاء ببطرسبرج نفسها ويقيم فيهِ الحفلات الحافلة فتبدو زوجتهُ بين اميرات الروس كالشمس بين الدراري . واميرات الروس لا يفوقهنَّ احدٌ في جمال الطلعة ولا في مايلبسنهُ من الحلى والحلل فيتوجن بالتيجان المرصَّعة بانفس الجواهر وينطن بها براقع بيضاء تلتفُّ حول رؤوسهنَّ كغيوم الربيع حول شمس الظهيرة ويرتدين حللاً من المخمل القرمزي واسعة الاردان طويلة الاذيال مزركشة بالذهب ويلبسنَ تحتها صدرًا من الدمقس مزركشة بالفضة ويضعن على اكتافهنَّ حروفًا من اسم الملكة مكتوبة بحجارة الالماس على شريط ازرق

وتُوِّج في مدينة موسكو في السابع والعشرين من شهر مايو (ايار) سنة ١٨٨٣ وكان لتتويجهِ احتفال يفوق وصف الواصفين فدخل المدينة راكبًا على فرس ابيض وكانت الساحات والشوارع غاصة بالوف من الخلق فلما وقعت عينهم عليهِ هتفوا جميعًا هتاف البشر والحبور وامتزجت اصواتهم بأصوات اجراس المدينة وهي الف وخمس مئة . ولما بلغ ساحة قصر الكرملين لاقاهُ سبعة آلاف من نخبة المغنين وهم يتغنون بالنشيد الوطني ودخلت القيصرة وراءهُ في مركبة من الذهب وهي ترمقهُ بعينها كيفما انتقل مخافة ان يصيبهُ احد بمكروه . وكان النهار ممطرًا فتطيَّر منهُ الشعب ثم اخذت الشمس تشرق من خلال الغيوم كلما خرج القيصر وزوجتهُ من كنيسة ودخلا اخرى فاستبشروا بذلك وقالوا ان حمامة من حمام الكرملين غطّت على القبة الَّتي فوق رأسهِ بجانب النسرين اللذين في شعار روسيا دلالة على ان الحكمة والوداعة ستقارنان القوَّة والسلطة في حكمهِ

ومن المآدب الَّتي أُدبت حينئذٍ احتفالاً بتتويجهِ مأدبة حضرها خمس مئة الف نفس

فأعطي كلٌّ منهم كأساً من الفضة عليها شعار القيصر ليشرب بها من الجمة الّتي كانت تجري انهرًا . وبعد ثمانية ايام استعرض الجيوش الروسيّة فملأت الفضاء بكثرتها ولما وقع نظرهُ عليها حيّاها تحيّة الاب لبنيهِ فاجابهُ الجنود قائلين "اننا سنبذل حياتنا في ارضاء جلالتك"

وعلق بهِ قلب شعبهِ لحبهِ لهم ولين عريكتهِ وكانوا يلقبونهُ باتُشكا اي الأبّي او الاب الصغير للتحبُّب ويلقبون القيصرة ماتشكا اي الام الصغيرة . وكثيرًا ما كانوا ينطرحون على الارض وراءهُ يلثمون اثر مركبتهِ تيمّنًا بهِ وهم يعجبون بما خصهُ الله من القوّة وشدّة البأس كما يعجبون بما خُصَّت بهِ زوجتهُ من البشاشة وطلاقة المحيّا . وهي من فضليات النساء واكثرهنَّ تصدُّقاً على المساكين واشدهنَّ سعياً في تعزية الحزانى والتأليف بين القلوب المتنافرة

وكان مقتصدًا في نفقاتهِ كما تقدَّم فالغى كثيرًا من الصلات والرواتب الّتي كان ابوهُ وسلفاؤهُ قد قطعوها المقربين منهم فانقسموا بسببها في الترف والملاهي وهي اصلاً من مال الفقراء والمساكين . ولقد احسن في ما فعل ولكنهُ استهدف لانتقاد الذين قطع رواتبهم مع انهُ بدأ بنفسهِ في تقليل نفقاتهِ . والنفقات في بلاط روسيا ممّا لا مثيل لهُ في قصور الملوك فقد قيل ان زوجة القيصر نقولا الاول طلبت يوماً شمعة من نوع خاص من شمع الشحم فلم يوجد ما طلبتهُ في القصر كلهِ فصدر امر القيصر حينئذٍ بان يُباع كل شهر اربعون رطلاً من هذا الشمع لكي لا يخلو القصر منهُ ابدًا . وظلَّ ثمن هذا الشمع يدرج بين نفقات القصر شهرًا بعد شهر وسنة بعد أُخرى الى ايّام الاسكندر الثالث ولو لم يُشترَ منهُ شيء فلا غرو اذا غاظهُ ذلك ودفعهُ الى التدقيق في النفقات لكي لا تذهب اموال العباد سدًى

ومن مزاياهُ الاهتمام بدقائق الامور فكان اذا عُرِضت عليهِ ورقة ليختمها يمعن نظرهُ فيها ويفحصها فحص المنتقد . ومَن كان هذا شأنهُ فقد تشغلهُ صغار الامور عن كبارها . ولعفتهِ وسلامة طويتهِ كان يصعب عليهِ احيانًا ان يعرف بواطن الملقين . وقد ارتقت بلاد الروس في ايامهِ ولكنها لم ترتقِ قدر ما كان يتمنّى لها من الارتقاء ولا نال شعبها من الحريّة قدر ما كان عازمًا على اعطائهِ لان مشيريهِ لم يكونوا يرفعون اليهِ كلَّ امانيّ الرعيّة مع ما بهِ من الحرص الشديد على ترقية شؤونها حتى انهُ كان يعدُّ نفسهُ مدعوًّا من الله لخير شعبهِ

ولقد سعى مدة حكمهِ في انشاء المدارس ونشر العلوم في انحاء السلطنة الروسيّة فكان عدد المدارس الابتدائيّة في بطرسبرج ١٤ فقط حينما تولى اريكة الملك فزاد عددها في ايامهِ على مئتين ولكنهُ لم يفلح في جعل تلامذة المدارس يسيرون بحسب مشيئتهِ ولهذا انتشرت تعاليم النيهلست بينهم خاصةً

وكان ابوهُ القيصر اسكندر الثاني قد حرَّر الفلاحين كما تقدم وشرع في ابتياع الاراضي الزراعيَّة من الامراء والشرفاء واعطائها لهم فرأى ابنهُ صاحب الترجمة ان ذلك لم يفد الفلاحين ولا اصحاب الاملاك فابطلهُ وانشأ بنكًا لاصحاب الأملاك ليستدينوا منهُ ما يحتاجون اليهِ من المال لزراعة ارضهم لان اجرة العمَّال زادت كثيرًا بعد تحرير الفلاحين ولكنهُ لم يقتصر على ذلك بل انشأ بنكًا آخر للفلاحين ليستدينوا منهُ ما يفون بهِ ايجار الارض . ونجحت صناعة روسيا في ايامهِ نجاحًا عظيمًا وكثر استخراج المعادن من مناجمها

وقد رزق خمسة اولاد ثلاثة صبيان وبنتين فربَّاهم هو وزوجتهُ كأنَّ لا خدَم في بلاطهِ رغبةً منهما في بساطة المعيشة واقصاء الغرباء واهتمَّ هو بتربية ابنائهما وتعليمهم واهتمت هي بتربية بنتيها وتعليمها ولا يراد بذلك انهما لم يستخدما لهم الاكفاء من المدرِّسين والمدرِّسات بل انهما رافبا تعليمهم اشدَّ المراقبة لا كما يفعل كثيرون من الملوك والامراء

وكان يحسب خير اوقاتهِ واكثرها بهجة حين يلقي مهام الملك عن عاتقهِ ويجلس بين اولادهِ في قصر كتشينا او بترهوف او في بلاد الدانمرك عند اهل زوجتهِ فانهُ كان يلاعب الاحداث حينئذٍ ويباسطهم كأنهُ واحد منهم وكثيرًا ما كان يقف منتصبًا ويطلب اليهم ان يزيحوهُ من مكانهِ فيحاولون ذلك احادى وجماع وهو ثابت كالطود العظيم لا يتحرك ولا يتقلقل لقوة عضلهِ وشدَّة بأسهِ . ويقال انهُ كان يقبض على نعلة الفرس فيطويها بيدهِ كانهُ يطوي قطعة من القرطاس

وما كان يجدهُ من السلوى في قصرهِ لم يكن يجدهُ بين اخوتهِ وذوي قرباهُ . وقد ساءهُ منهم عدم مبادرتهم اليهِ وقتما حدثت حادثة بوركي وكاد يُقتَل فيها هو وزوجتهُ واولادهُ جميعًا . ولهذه الحادثة شأن كبير في تاريخهِ لانها زادت تعلُّق شعبهِ بهِ وقوَّت ايمانهُ بالقدرة الالهيَّة واعتمادهُ عليها . ولم تكن هذه الحادثة نتيجة مكيدة كادها النيهلست لهُ كما شاع حينئذٍ بل نتيجة الخطإ والاهمال في ادارة سكة الحديد . وقد قُتِل بها واحد وعشرون شخصًا وجُرح ستة وثلاثون وكان القيصر وزوجتهُ واولادهُ يأكلون فعرزت شوكة الطعام في يد زوجتهِ واصابها منها ارتعاش عصبي لا غير فلم يعد يخشى مكايد النيهلست بعدئذٍ لان الله انقذهُ من شرهم ورسخ في عقول شعبهِ ان الله يحبهُ بنوع خاص فلا يسمح لاحد ان يعتدي عليهِ

لكنَّ عوادي الادواء لا تحترم جانب الملوك ولا تراعي مقام العظماء فلم ينصرم شهر سبتمبر الماضي حتى جعلت الانباء ترد بانهُ مريض في كليتيهِ ووردت رسالة من فينا

على جريدة التيمس لخصناها في المقطم الصادر في ٨ اكتوبر (ت ١) ومما جاء فيها "ان مرضهُ التهاب الكليتين وسبب اصابتهِ بهذا الداء كثرة ما انتابهُ من المشاغل والهموم وليس هناك سبب آخر لان القيصر معروف بمراعاة صحتهِ والاعتدال في معيشتهِ. وقد شمل الاسف جمهور الناس في اوربا وساءهم مرضهُ لما اشتهر بهِ من الدعة واللين ولرغبتهِ في توطيد اركان السلام". وهذا التعليل لمرضهِ ينطبق من بعض الوجوه على ما ذكرناهُ في المقطم الصادر في ١٢ اكتوبر نقلاً عن بعض الجرائد الالمانيَّة فقد جاء فيهِ "انهُ مصاب بمرضين احدهما الآلام العصبيَّة وما يرافقها من الضعف وفقر الدم وقد اصابتهُ على اثر ما انتابهُ من الهواجس والهموم لوفاة ابيهِ القيصر اسكندر الثاني تلك الوفاة المفجعة وتوالي مكايد النيهلست عليهِ واخصها مكيدة بوركي ثم ما كان من اصابة ابنهِ الغرندوق جورج بداء عضال فاثَّر ذلك كلهُ في اعصابهِ. اما المرض الثاني الذي يشكو منهُ فهو تدرُّن الكليتين وقد اشتدَّ عليهِ لبرد شديد اصابهُ وهو ذاهب لعيادة ابنهِ ... ولما اشتدَّ عليهِ المرض ألحَّ باستدعاء ابنهِ فحضر واقامت زوجتهُ في غرفتهِ الى الساعة الواحدة بعد نصف الليل جريًا على عادتها ثم ذهبت الى مخدعها ولما احسَّ بانصرافها نهض من فراشهِ وذهب بثياب النوم الى مخدع ابنهِ المريض وهو بعيد عن مخدعهِ وبينهما رواق طويل يشتدُّ فيهِ البرد وكان ابنهُ نائمًا فوقف امام سريرهِ ينفرِّس فيهِ فاصابهُ زكام في تلك الليلة كان سببًا في اشتداد المرض عليهِ"

وهذا ينطبق ايضًا على ما قرَّرهُ طبيبهُ الاخير الدكتور ليدن وقد نشرت ذلك جريدة الفيغارو ولخصناهُ في المقطم الصادر في ٢١ نوفمبر الماضي ومما جاء فيهِ ما نصهُ

"ان سبب وفاة القيصر انما هو التهاب مزمن في كليتيهِ زاد في مرضهِ حتى قضى عليهِ. وذلك بما ابداهُ من قلة الاكتراث لما كان الاطباء يصفونهُ لهُ من انواع العلاج فانهُ كان يشتغل من الاشغال ما يفوق قدرة البشر فكان في حاجة الى استجماع كل قواهُ العقليَّة والجسديَّة للقيام بمهام اعمالهِ ولما اضطرَّ الى مقاومة المرض كان الوقت قد فات فعجز عن ذلك ولم يستطع اليهِ سبيلاً وقد اظهر بسالة عظيمة الى الساعة الاخيرة وصبر على علتهِ واوجاعهِ وقال اقوالاً تدل على انهُ كان عالمًا بحقيقة حالهِ وشدَّة الخطر المحيق بهِ. ولما بلغهُ خبر مجيء الدكتور ليدن الى ليفاديا صاح قائلاً هل بلغ مرضي الى هذا الحد من الشدَّة واليأس حتى استقدمتم الدكتور ليدن لمعالجتي

"وقد كان في ايام مرضهِ من اشد المرضى عصيانًا لاوامر اطبائهم فان هذا الرجل

الذي كان ينقاد اليهِ كل امرٍ كان يأبى كل الاباء ان ينقاد لرأي احد او ان يضطرهُ احد الى فعل امر لا يريدهُ. وقد كان السبب في ما اصابهُ من النزلة الوافدة شدَّة اصرارهِ على رأيهِ فقد أبى ان يشتغل ليلاً الاَّ امام النافذة وهي مفتوحة وكانت درجة الحرارة اثني عشرة تحت الصفر. وقد ابلغهُ الاطباء انهُ يجب عليهِ ان يقتصر على تناول اللبن مراعاة لمرضهِ وان يجري حسب مشورتهم فوعدهم بذلك ولكن لم يمضِ ثمانية ايام حتى عاد الى سابق عادتهِ في المأكل والمشرب فاصابهُ النكس وساءت صحتهُ ثم اشتدَّت عليهِ الاعراض العصبيَّة وكان لا يصغي الى الاطباء ولا يعمل بمشورتهم وقد اتفق ثلثة منهم على العلاج الذي يجب ان يعالج بهِ اما هو فكان يقول انهم غير عالمين بشيءٍ من امر مرضهِ ولبث ينهض وحدهُ ويلبس ملابسهُ ويستحمُّ الى ان اصاب الاستسقاء الاعضاء السفلي من جسدهِ. ولا يخفى ان كل هذه الاعمال العادية الَّتي لا يتأتى عنها اقل ضرر للسليم كانت تضر بهِ وتنهك قواهُ خصوصاً وقد كان مصاباً ايضاً بالتهاب حاد في الجلد وهذا ما منع الاطباء من عمل عمليَّة لهُ ربما كانت سبباً في اطالة حياتهِ ولكنها لم تكن تفيد لشفائهِ

"وفي ليلة اول نوفمبر شكا من ضيق التنفس فاضطروا ان ينشقوهُ غاز الاكسجين وقضى اثنان من الاطباء سواد الليل في المخدع المجاور لمخدعهِ لانهُ كان لا يقبل في مخدعهِ احداً من غير اسرتهِ والمقربين اليهِ مدة الليل ولما اصبح الصباح اراد ان ينهض من سريرهِ ويمشي على قدميهِ الى مقعدهِ وكان هذا آخر ما جهد نفسهُ على عملهِ

"وقد شكا في الساعة العاشرة من برد في اطرافهِ فجعلت القيصرة تفرك يديهِ ثم اراد الدكتور ليدن ان يثوب منابها في ذلك فابى القيصر ونزع يديهِ منهُ فعادت الى فركها وقد خرج الدكتور ليدن وقتئذٍ من الغرفة فقال القيصر بصوت عذب لقد تركني الاطباء اذاً. ولما قارب الظهر دخل الكاهن حنا واراد ان يضع يدهُ على جبهتهِ فاحجم الى الوراء ولم يرد ان يمسهُ احد ثم رقد الى الساعة الواحدة واسند رأسهُ الى كتف القيصرة وكانت قد نهضت وقتئذٍ ووقفت حذاء المقعد. وقد بقي القيصر على هذه الحال مدة ساعة من الزمان وهو يحدق بنظرهِ الى ولدهِ. وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة اخذ في النزع ودام في حشرجة ولفلفة الى ان توفاهُ الله في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة عشرة"

هذا وسنأتي على ذكر مناقبهِ والاحتفال بدفنهِ في الجزء التالي من المقتطف